شذور من سيرة غلادستون

احتفل الانكليز في هذه الاثناء بمئة سنة مرّت على ميلاد وزيرهم العظيم غلادستون فانهُ ولد في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٠٩ وقد كتب السر الجرنون وست الذي كان سكرتيراً لهُ في وزارته شذوراً من سيرته رأينا ان نتقطف منها ما يلي لما فيهِ من الفائدة لجمهور القراء قال

ان افضل احتفال نحتفلهُ بعيد غلادستون هو تذكُّر افضل سيرة سارها رجل من ابناء هذه البلاد . سيرتهُ من مبتداها الى منتهاها نقية الصفحة خالية من كل عيب ووصمة . ولقد احسن الاستاذ بلاكي اذ وصف غلادستون بقولهِ انهُ كان على غاية البساطة يغار على الحق غيرة صادقة ويتمسك بكل ما هو شريف نبيل ولا يهتم بمصالحهِ الذاتية

من رأي بعض الفلاسفة ان الصور الذهنية تجتمع في مخادع النفس ولو لم يدر بها الوجدان وتبقى هناك الى ان يحدث ما يدعو الى اظهارها . وهذا يصدق بنوع خاص على غلادستون فانهُ كان ذا ذاكرة غريبة فقد اخبر ارنولد مورلي مرةً انهُ كان لا يزال يتذكر لون الثياب التي كانت تلبسها مرضعتهُ وهو طفل . وقال لي مراراً انهُ لا يزال يتذكر كيف أُجلس على مائدة الطعام وعمرهُ ثلاث سنوات حينما احتفل ابوهُ برجوع الوزير كنتج الى لفربول ويتذكر ايضاً كيف نُحت كرسي فندق كان فيهِ في ادنبرج سنة ١٨١٤ من اطلاق المدافع احتفالاً بتنازل نبوليون الاول

تذاكرنا مرةً في ربح صافي البيرة من الشعير المنقوع وكان ذلك سنة ١٨٨١ فقال انهم يربحون ثلاثة في المئة فقلت لهُ بل يربحون اربعة في المئة فقال ألم تقل لي انت انهم يربحون ثلاثة في المئة فقلت كلاَّ فالتفت الى المستر بونج وكان اصلاً في مصلحة الرسوم وقال لهُ اتتذكر سنة ١٨٣٢ فقال نعم وكان الربح حينئذٍ ثلاثة في المئة . فتنفس الصعداء وقال ألان خطر ببالي كيف خلق بذهني ان الربح ثلاثة في المئة فقد انتُخبت حينئذٍ نائباً عن نيوارك فدرست هذه المسألة وذلك منذ خمسين سنة

وبعد قليل كنت ذاهباً الى النظارة (دولنج ستريت) فلحق بي برترام كري وطلب مني ان اتمس من غلادستون ليتكلم في مسألة النقدين التي كانت معروضة للبحث تلك الليلة (أي مسألة استعمال الذهب والفضة في المعاملة واختيار الذهب اساساً لها) . فظننت انهُ يتعذَّر عليَّ ذلك لان غلادستون كان مشغولاً بمشاغل أُخرى لكنني بلَّغتهُ رسالة كري فتبسم وقال انهُ يتكلم اذا جاء دورها قبل العشاء . ثم خطب فيها خطبةً رأَت لها اوربا كلها

وتناقلتها كل الجرائد الاوربية واتضحت بها مسألة الفقدين تمام الاتضاح ونُسفت آراء القائلين بعدم اهلية معاً اساساً للمعاملة

فسألته في الصباح كيف تيسّر لهُ القاء تلك الخطبة فقال انني عارف بتاريخ هذه المسألة ثم سألت هركورت عما تمّ فيها اخيراً فلم اجد صعوبة في سرد ما قالهُ

اخبرني المستر بريط (الوزير الانكليزي والخطيب الشهير) انهُ سمع مرةً سيدةً تخط على غلادستون فقال لها « ان كان لكِ اولاد فاربيهم غلادستون واجتهدي لكي تجعليهِ يصاحبهم فيشكروكِ في مستقبل حياتهم لانكِ اربيتهم اعظم رجال السياسة البريطانيين واشرفهم وافضلهم » . وما احسن ما قالهُ مزيني (مؤسس حزب ايطاليا الفتاة) وهو « ان الناس يموتون ولكن الحق الذي علّموا بهِ والخير الذي عملوهُ لا يموتان معهم »

وكانت محبة غلادستون للحرية لتتقد في فؤادهِ يرشدها عقل ثاقب وشعورها رغبة شديدة في خير الناس فحملي طبقة خطبهِ الى مقام الالهة . ولم يجتمع العقل الكبير والصدر الرحيب في رجل وكان اجتماعهما امكن من اجتماعهما فيهِ . ولقد ظهر ذلك اولاً في ما كشفهُ من فظائع سجون نابلي وما ينال المسجونين فيها من ضروب الحيف والقسوة فانهُ جاهر بذلك على رؤوس الاشهاد ولم يخشَ لومة لائم

كان بدء اتصالي بهِ منذ سنة ١٨٦٨ اي في وزارتهِ الاولى فانهُ خصّني حينئذٍ بثقتهِ التي دامت الى حين وفاتهِ . ويقال ان المرء يكون عظيماً الاَّ في عين خادمهِ لكن هذا القول لا يصدق عليهِ لانني كنت ازيد حبًّا لهُ واعجاباً بهِ كلما طالت مدة اقامتي معهُ . كان حينئذٍ في اوج عظمتهِ وقوة مجدهِ مكرّماً معظّماً محترماً من الجميع مشهوراً بفضائلهِ وفواضلهِ الف وزارة من نخبة الرجال وبث فيهم من روحهِ وقادهم بثاقب عقلهِ وصائب رأيهِ فجعلت وزارتهُ للبلاد اكثر مما فعلتهُ وزارة قبلها او بعدها . ولم يطل الوقت عليَّ حتى رأيت جمال سيرتهِ البيتية وتكريسهُ كل اوقاتهِ للاعمال المطلوبة منهُ وتساهلهُ مع الذين يخالفونهُ في الرأي وتحققت ما قالهُ عنهُ لورد سلسبري وهو انهُ كان يرمي في كل اعمالهِ ومساعيهِ الى اغراض شريفة سامية

شكا اليَّ لورد دلهوسي مرةً من ان غلادستون اضرَّ بهِ وبمعاصريهِ ضرراً كبيراً لانهُ جعل لمقامات الرجال حدًّا ساميًا جدًّا يتعذَّر عليهم البلوغ اليهِ . ولا غرابة في ذلك لانهُ كان فرداً لا مثيل لهُ . فلم يدخل في مجادلة او مباحثة الاَّ رفع مقامها ولا تعاطى عملاً الاَّ اكبَّ عليهِ بكليتهِ واثقاً انهُ مصيب فيهِ تمام الاصابة فلم يكن في اعمالهِ محلٌّ للندامة . وقد غيَّر آراءهُ مراراً ولكنهُ لم يتبع رأيًا منها الاَّ وهو مقتنع بصحتهِ ولم يتركهُ الاَّ حينما اقتنع بفسادهِ .

قال مرة لقد اخطأت مراراً كثيرة في اعمالي السياسية ولكن الله يعلم اني لم اقل شيئاً ولم افعل شيئاً الا واني معتقد صحته والله على ما اقول شهيد

وكان في سيرته البيتية مثال الترتيب والانتظام سواء كان في اوقات العمل او في اوقات الراحة ومثال اللطف والدعة . ولم يقل انه ولا قلّت بشاشته بتقدمه في السن وزيادة مشاغله

لما دعي لتأليف وزارته الاخيرة كان عمره ٨٣ سنة فقال لي لما دخلنا باب دار الوزارة هذا ليس مما اميل اليه بالطبع مهما كان مني . وبعض رفاقه في هذه الوزارة كانوا اطفالاً لما انتظم بين رجال السياسة ومع ذلك جرى معهم جهمة وتشاط كأنه شاب مثلهم . ولقد قال لي احد الاصدقاء حينئذٍ قل ان عمره ٩٢ سنة بدل ٨٢ فلا تبعد انقلوب عنه بل تزيدها تعلقاً به . ولكن الزمان كان قد تغيّر فانه كان يحب الاقتصاد ويكره التبذير ورأى زيادة النفقات الحربية والبحرية فنفر منها وطالما قال لي حينئذٍ ان هذا الافراط في النفقات الحربية سيقودنا الى الافلاس بين امم اوربا . ولكن امم اوربا اقتدت بنا وصرنا كلنا سائرين الى الافلاس سيراً حثيثاً . وبقي الى آخر ايامه ينادي بوجوب المحافظة على السلم والاقتصاد والاصلاح . ومن يفكر في السلم الآن ولا يترحم على الذي اشار بوضع التحكيم موضع الحرب . ومن يفكر في الاقتصاد في النفقات ولا يتذكر اقتصاد غلادستون في نفقات الحكومة وجهاده في هذا السبيل الى آخر ايامه . ومن يفكر في الاصلاح ولا يخطر بباله ما فعله غلادستون لحكومة بلاده

كنت سنة ١٨٩١ ضيفاً على المستر ارمستد في بارنز (بقرب على خليج بكي) وكنا جماعة وفيها جون مورلي (وهو الآن لورد مورلي وزير الهند) وغني عن البيان ما كان لحديث اولئك الرجال من الطلاوة وكانت وزارة المحافظين قد قاربت الزوال فدار الحديث على تأليف وزارة جديدة لكن جون مورلي خاض في بحار الادب وجال في رياض الشعر وجعل غلادستون يطرقنا بالكلام عن لقرشيوس ويوازن بينه وبين فرجيليوس ويطنب بمدح كاتلوس وبوسيوس واسف على اهمال فنون الادب الايطالية . وقايل بين فلسفة بطلر ولوك . وعزا مورلي كل الفلسفة التي يعرفها الى جون ستورت مل . وقال غلادستون اننا مدينون للشعراء وعدّ كثيرين منهم وفضّل تنسن عليهم كلهم . وقال ارثر هلام ان وردسورث[1] خلق ليكون شاعراً او فيلسوفاً ولكن شعره عطّل فلسفته وفلسفته عطلت شعره

(١) لوقرشيوس وفرجيليوس شاعران رومانيان وكذلك كاتلس وبرشيوس . وبطلر ولوك ومل من فلاسفة الانكليز . وتنسن ووردسورث من اكبر شعرائهم

واشار غلادستون الى كرومول ونبوليون وقال انهُ كان يود ان يراهما في حرب او براز وان دزرائيلي اقوى رجال البارلمنت بداهة

واجتمعنا عند المستر ارمستد في بيارتز سنة ١٨٩٥ وكان صحة النفقات الحرية قد حنا ظهر غلادستون في آخر حياته السياسية ولكنهُ كان يتفي همومهُ احياناً ويعود الى بشاشته الاولى ويتكلم كما كان يتكلم في الازمنة الغابرة وكنت اعي كل كلمة يقولها لعلي بدنو اجلهِ . وقبل ان عدنا من بيارتز تناول مجلة فرأى فيها مقالة في موضوع ديني (عن سر الانجارستيا) فعكف على مطالعتها حتى نسي نفسهُ ثم عرف ان كاتبها قس انكليزي اضطرَّ ان يقيم في ضواحي بيارتز استشفاء بهوائها فاستدعاهُ اليهِ وسرَّ بهِ ولما عاد الى انكلترا جعل لهُ معاشاً بين الذين يأخذون معاشهم من مرتبات العرش كاحد المؤلفين الذين يؤلفون كتباً مفيدة ولكنها ليست مما يكسب مؤلفيها مالاً

ومما امتاز بهِ انهُ كان يودُّ كل رجال الحكومة كما كان رجال الحكومة يودُّونهُ . كان ألين الرؤساء عريكة واشدهم محبة لمرؤوسيهم . وقد رأيتهُ بعد استعفائهِ الاخير في بيت صديقهِ لورد ارمستد في مكتلندا وكان مصاباً بكترکتا اليمنى (مرض في العين) وهو صابر على الالم صبر الابطال وعمل لهُ الدكتور تلتب عملية الكترکتا فلم تفلح ولما علم غلادستون ان العملية لم تفلح قال اني آسف جداً من اجل تلتب . فنسي نفسهِ لدى اهتمامهِ بطبيبهِ لانهُ خاف ان عدم نجاح العملية يضر بسمعة ذلك الطبيب . ثم جاء الاجل الذي كان ينتظرهُ بفارغ الصبر وهو على تمام الاهبة لهُ فبكتهُ بلادهُ وبكاهُ الناس اجمع . والام التي نالت سريتها والام التي كانت تسعى الى نيلها اشتركت كلها في الحزن على من كان من امجاد نوع الانسان

ثم ختم الكاتب مقالتهُ بابيات خاطب بها نفس غلادستون قائلاً « على اي شاطئ رسوت الآن لان تلك القوة التي كانت فيك لم تهمل فلا بدَّ من مكان بعيد تستعمل فيهِ تلك القوة والغيرة وذلك النفع والثبات » وقد نظمنا ذلك بهذين البيتين

لله انت من نفس على اي شاطئ رسوت فقد كانت لك العزمات
عرجت الى دور بها تظهر القوى فهاتيك اوطان وتلك حياة